بتقديم مثل حديث للغاية. فعشية انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة، خلال شهر نيسان (ابريل) الماضي، شن الفدائيون بعض الهجمات على حدود فلسطين الشمالية، منطلقين من الجنوب اللبناني، كما وقعت عمليات اخرى داخل المناطق المحتلة، وذلك كما يبدو «تحية» للمجلس ولـ «الوحدة الوطنية». وسارع الاسرائيليون، حسب العادة، الى الرد واتخاذ ما ينبغي من اجراءات؛ وهدأت الاوضاع، حسب العادة؛ الى ان تثور مجدداً في عملية أخرى، هنا او هناك، حسب العادة ايضاً. والواضح ان مثل هذا النشاط لم، ولن، يحسم امراً، وهو بالنسبة الى اسرائيل ليس الا دليل ضعف لا حاجة الى ان تؤخذ مطالب اصحابه في الحسبان. فلقد تحملت اسرائيل نتائج مثل هذا النشاط سنوات عدة في الماضي، وتستطيع ان تتحمله لسنوات اكثر في المستقبل، أيضاً.

عودة الى الأصول

ان مجمل اداء الفلسطينيين، في صراعهم المستمر مع اسرائيل، لم يسفر، حتى الآن، كما هو ملموس جيداً، عن اي تغيير يذكر في الموقف الاسرائيلي تجاههم؛ ولن يؤدِّ في المستقبل الى اكثر من ذلك، اذا دام الحال على هذا المنوال. ومن هنا، بات في حكم المحتم، اذا اريد للعمل الفلسطيني ان يحقق أياً من اهدافه، المبادرة ـ واليوم قبل الغد ـ الى استبدال الاساليب الماضية، مع العقلية التي وقفت وراءها وتحكمت بها، بأخرى عصرية، اكثر نجاعة وفعالية. وبدلاً من «الكفاح المسلح»، الذي لا يبدو، في ممارسته حتى الآن، الا عبارة عن «حالة» من «الطخطخة»، تنفذ حسب التساهيل وفي المناسبات، دون ان تقدم شيئاً يذكر في دحر مخططات العدو او «تثقيفه»، هناك ضرورة لصراع مسلح (ولن يحبون التعابير المعتدلة، نقترح «حوار مسلح»)، مستمر ودائم وشامل، حتى ولو كان على نار خفيفة، يتم تنفيذاً لمخططات واضحة، وسعياً الى اهداف محددة، يركز على الارض المحتلة قبل غيرها، ويوضع المهجر في خدمته، لا العكس. ويبدو ان صراعاً كهذا هو الطريقة المثلى، والوحيدة، للتعامل مع العدو الصهيوني في المستقبل المنظور. بل يبدو ان نجاحاً في مثل هذا الصراع، بمعنى التمكن من «بطح» الاحتلال الاسرائيلي أرضاً وربط يديه، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من الحقوق الفلسطينية، التي لم يتم هضمها بعد، من بين اسنانه، هو ما ينبغي العمل من اجله. والخطوة الاولى على هذا الطريق هي، على الاقل، السعي بمثابرة وثبات، قولاً وفعلاً، لـ «افهام» المحتل ان احتلاله مكلف، لا يستطيع، ولن يُسمح له، بأن يستقر؛ وقد يجر عليه مخاطر كبيرة؛ وبالتالي فانه غير مفيد له على المدى الطويل.

وقد يقال ان الاوضاع العربية والدولية، بل ان «الاجواء» لا تساعد في ذلك؛ وربما كان هذا صحيحاً. الا انه، على الرغم من ذلك، او ربما بسبب ذلك، لا يبدو ان هنالك طريقاً اخرى. صحيح ان شن مثل هذا الصراع سوف يكون اكثر سهولة، وقد يؤدي الى نتائج احسن، فيما لو كان هنالك وضع عربي مؤيد وداعم له؛ الا ان الصحيح، ايضاً، هو انه في الامكان القيام بذلك بقوى فلسطينية ذاتية، ودون الحاجة الى مساعدات العديد من الانظمة العربية، او حتى من الكثيرين غيرها. وعلى كل حال، ليس هنالك الكثير مما يمكن ان نتوقعه من الانظمة العربية في هذا الصدد. فتلك الانظمة توقفت، منذ ايام زمان، حتى عن التحدث عما كان يحلو لها تسميته «خياراً عسكرياً»، وجنحت للـ «سلم»، واستكانت للهدوء. وحتى اولئك الذين يتحدثون عن «توازن استراتيجي»، فهم يريدونه لتحسين مركزهم التفاوضي، ليس الّا.

ان نظرة موضوعية الى مجمل الاوضاع الفلسطينية، والاسرائيلية، وعلى الرغم من تعقيدات المنطقة، تظهر ان القوة الفلسطينية الذاتية كافية لمقارعة الاحتلال؛ ان لم يكن لرميه ارضاً، فعلى الاقل